تفسير ابن عاشور المقاصدي لسورة الحج
وتطبيقاته العملية على الحاج والمعتمر

Ibn Ashour's interpretation of Surat Al-Hajj and its practical applications on Pilgrim and Umrah performer

الدكتور محمد الصالح ستي

جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية بقسنطينة - الجزائر

Taleb.se@gmail.com

ملخـــــص:

تعتبر سورة الحج من أعاجيب سور القرآن لما تميزت به من خصائص، حيث تضمنت جملة من المقاصد العامة والخاصة، تصب في مقصد أساس يمس العقيدة والباطن، يتمثل في توحيد الله وتعظيمه وتحقيق عبوديته وتقواه.

وربطا بين ركن الحج ـ الذي يغلب عليه الجانب العملي ـ والمقصدِ الأساسِ للسورة، يمكن القول أن سورة الحج جاءت لمعالجة الجانب الروحي والباطني لركن الحج، فأهم ما يستفيده الحاج والمعتمر من تدبر مقاصد هذه السورة هو محاولة تشغيل معمل قلبه ورحى نفسه، بأن يستحضر قلبه وفؤاده في كل فعل وقول، في كل حركة وسكون، أثناء تأدية مناسكه، فيحج بقلبه قبل أن يحج بجوارحه.

الكلمات المفتاحية: التفسير؛ المقاصد؛ الحاج؛ المعتمر.

Abstract :

Surah Al-Hajj is considered one of the marvels of the surahs of the Qur'an because of its characteristics, as it included a number of public and private purposes, which pour into a basic goal that touches the belief and the subconscious, which is represented in the unification of God, His glorification, and the realization of His servitude and piety.

And linking the pillar of Hajj - which is dominated by the practical aspect - and the main purpose of the surah, it can be said that Surat al-Hajj came to address the spiritual and mystical aspect of the pillar of Hajj. The most important thing that the pilgrim and the Umrah pilgrim can benefit from contemplating the purposes of this surah is the attempt to operate the laboratory of his heart and comfort his soul. In every action and word, in every movement and stillness, while performing his rites, he performs Hajj with his heart before he performs Hajj with his limbs.

key words: Interpretation; purposes; Pilgrim; umrah performer

1. المقدمـــــة

الحمد لله وكفى، والصلاة والسلام على نبيه المصطفى، وعلى آله وصحبه أنوار الهدى ومصابيح الدجى، ومن اتبع أثرهم واقتفى، وبعد:

يعد التفسير المقاصدي للقرآن الكريم من أدق علوم التفسير وأعزها، فإن كان لبعض آيات القرآن قصدٌ ظاهرٌ ومغزى جليٌّ، فإن بعضها الآخر يحتاج لطولِ تدبر، وإمعانِ نظر، وحضورِ سمع وقلب، حتى يتمكن الساعي من سبر أغوارها، والوصول إلى مقاصدها ومراميها، ومعرفة أسرارها وغاياتها، فيفتح الله على مَن يشاء بما شاء، وفي هذا الباب تسابق المتسابقون وتنافس المفسرون، فكان من أشهر من خاض هذا المضمار وسبر هذه الأغوار؛ الشيخ محمد الطاهر بن عاشور في تفسيره التحرير والتنوير؛ والذي سأعتمده كأساسٍ في هذه الورقة البحثية، دون إغفالٍ لما أفاد به غيره من المفسرين في هذا الباب.

ولعل من أبرز الآيات القرآنية التي تجلى فيها البعدُ المقاصديُّ والمعنى الغائيُّ؛ الآيات المتعلقة بركن الحج، وهو الركن الوحيد الذي سمّى الله تعالى سورة قرآنية باسمه، لما له من حكمٍ عظيمةٍ ومقاصد جليلةٍ، تعود بالنفع على الفرد والمجتمع، فقد تضمنت سورة الحج العديد من الآيات المتعلقة بأحكام وأقوال وأفعال شعيرة الحج، كان لابن عاشور وغيره صولات وجولات في بيان مقاصدها، واستنباط غاياتها وأسرارها.

وعليه يمكن طرح الإشكالية الآتية: ما هي أهم مقاصد سورة الحج العامة والخاصة؟ وما هي أبرز آثارها السلوكية وتجلياتها العملية على الحاج والمعتمر خصوصا، والمجتمع الإسلامي عموما؟

للإجابة على هذه الإشكالية سأعتمد خطة تتضمن ما يأتي:

1- مقدمة

2- مدخل تعاريفي: تعريف التفسير المقاصدي – التعريف بسورة الحج – التعريف بابن عاشور وجهوده المقاصدية.

3- المقصد الأساس لسورة الحج وآثاره السلوكية على الحاج والمعتمر.

4- المقاصد العامة لسورة الحج وتجلياتها العملية على الحاج والمعتمر.

5- المقاصد الخاصة لسورة الحج وفوائدها على الحاج والمعتمر.

6- خاتمـــة

2. مدخـــل تعـــاريفي

سأحاول في هذا المدخل تقديم تعريفٍ موجزٍ لبعض المصطلحات بين يدي الموضوع، فأستهل بتعريف التفسير المقاصدي، ثم أثنّي بتعريف سورة الحج، لأنتهي إلى التعريف بابن عاشور وذكر جهوده المقاصدية.

أولا– تعريف التفسير المقاصدي:

التفسير المقاصدي لفظ مركب من تفسير ومقاصد، وَرَوْما للاختصار والإيجاز سوف أتجاوز تعريف التفسير والمقاصد كل على حدة، وأعرف المركب اللفظي مباشرة، فالتفسير المقاصدي كلون مستقل من ألوان التفسير يعتبر حديث النشأة، وقد اجتهد مجموعة من أهل الاختصاص في حدّه بتعريف جامع، ولعل من أحسن التعاريف القول: " هو لون من ألوان التفسير يبحث في الكشف عن المعاني والغايات المتنوعة التي يدور حولها القرآن الكريم كليا أو جزئيا، مع بيان كيفية الإفادة منها في تحقيق مصلحة العباد.

ونعني ب (كليا أو جزئيا) المقاصد العامة للقرآن الكريم، التي تحدث عنها القرآن نفسه، والمقاصد الجزئية التي ربما تكون خاصة بموضوع أو سورة أو مجموعة من الآيات، أو حتى آية واحدة، وربما لفظة واحدة وبيان المراد منها، والنص على (بيان كيفية الإفادة منها)، جاء للتأكيد على أن التفسير ليس للتفسير وحسب، وإنما لبيان كيفية استنزال هدايات القرآن على الواقع المعاصر "[1].

أما التفسير المقاصدي للسورة: فهو " نوع من أنواع التفسير المقاصدي الخاص يبحث في أهداف وغايات السورة الواحدة، مع الكشف عن وجه الإفادة منها لتحقيق مصلحة العباد في العاجل والآجل "[2].

ثانيا– التعريف بسورة الحج:

سميت بسورة الحج لذكر فريضة الحج على لسان إبراهيم الخليل عليه السلام بعد بناء البيت العتيق، وآذانه في الناس، فبلغ صوته أنحاء الأرض، وأسمع النطف في الأصلاب، فلبوا النداء: لبيك اللهم لبيك[3]، وإن كان نزولها قبل أن يفرض الحج على المسلمين بالاتفاق، وإنما فرض الحج بالآيات التي في سورة البقرة وسورة آل عمران[4].

واختلف أهل العلم في هذه السورة هل هي مكية أو مدنية على أقوال، والجمهور على أن السورة مختلطة بعضها مكي وبعضها مدني، أي لا يعرف المكي بعينه، والمدني بعينه.[5]

---

[1] : وصفي عاشور، التفسير المقاصدي لسور القرآن، ص 8.

[2] : المرجع نفسه، ص 14.

[3] : ينظر: مسلم مصطفى وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن، 75/5.

[4] : ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، 179/17.

[5] : الأندلسي ابن عطية، المحرر الوجيز في علوم تتعلق بالكتاب العزيز، 127/4.

وذكر القرطبي عن الغزنوي أنه قال: " سورة الحج من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، مكيا ومدنيا، سلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها "[6]، وهي السورة الوحيدة التي سميت بركن من أركان الإسلام.

وقد عُدّت السورة الخامسة والمائة في عداد نزول سور القرآن في رواية جابر بن زيد، وهي سبعون وأربع آيات في الشامي، وخمس في البصري، وست في المدنيّن، وسبع في المكي، وثمان في الكوفي.[7]

ثالثا– التعريف بابن عاشور وجهوده المقاصدية:

محمد الطاهر بن عاشور، رئيس المفتين المالكيين بتونس وشيخ جامع الزيتونة وفروعه بتونس، ولد سنة 1879م نشأ ودرس بتونس، عُيّن عام 1932 م شيخا للإسلام مالكيا، وهو من أعضاء المجمّعين العربيين في دمشق والقاهرة، توفي سنة 1973 م، له مصنفات مطبوعة من أشهرها: مقاصد الشريعة الإسلامية، وتفسير التحرير والتنوير.[8]

وللشيخ جهود مقاصدية معتبرة، تظهر في كتابه الماتع مقاصد الشريعة الإسلامية؛ الذي لا يُستغنى عنه في هذا الفن، إضافة إلى أنه خصص المقدمة الرابعة من مقدمات تفسيره لذكر المقاصد العامة للقرآن، كما أنه التزم في تفسيره أن يُصدِّر كل سورة بذكر أغراضها أو مقاصدها العامة، بتحرير عميق وإيجاز دقيق، قال في مقدمة تفسيره: " ولم أغادر سورة إلا بينت ما أحيط به من أغراضها، لئلا يكون الناظر في تفسير القرآن مقصورا على بيان مفرداته ومعاني جمله كأنها فِقَرٌ متفرقة، تصرفه عن روعة انسجامه، وتحجب عنه روائع جماله "[9].

3. المقصد الأساس لسورة الحج وتطبيقاته العملية على الحاج والمعتمر

لكل سورة من سور القرآن جملةٌ من المقاصد والأغراض المرتبطة بموضوعاتها ومقاطعها، إلا أن هذه الأغراض تصب في مقصد أساس وغرض أكبر تدور حوله كل أطوار السورة، وفي العادة يكون لهذا المقصد ارتباطٌ وثيقٌ وصلة وطيدة بتسميتها، ذكر البقاعي في كتابه نظم الدرر: "وقد ظهر لي باستعمالي لهذه القاعدة بعد وصولي إلى سورة سبأ في السنة العاشرة من ابتدائي في عمل هذا الكتاب، أن اسم كل سورة مترجِم عن مقصودها، لأن اسم كل شيء تظهر المناسبة بينه وبين مسمَّاه؛ عنوانه الدال إجمالاً على تفصيل ما فيه "[10].

والوصول إلى هذا المقصد هو عمل اجتهادي تلمسي عبر طرق ومسالك علمية موضوعية وذاتية خاصة، يتطلب قراءة متأنية للسورة، وتدبرا عميقا لمعاني آياتها، وفهما دقيقا لموضوعاتها، واستنطاقا بليغا لغاياتها وأهدافها،

---

[6] : القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، 1/12.

[7] : الداني أبو عمرو، البيان في عد آي القرآن، ص 189.

[8] : ينظر: الزركلي، الأعلام، 173/6-174.

[9] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 08/1.

[10] : البقاعي إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، 11/1-12.

ثم محاولة لملمة هذه الأغراض والأهداف والتنسيق بينها ومعرفة صلة ارتباطها ببعضها البعض، للوصول في النهاية إلى مقصدها الأساس وغرضها الأكبر.[11]

ولم يشر ابن عاشور مباشرة إلى المقصد الأساس لسورة الحج، إلا أنه ذكر جملة من الأغراض العامة المتعلقة بموضوعات السورة المختلفة، ومن خلال تمعن هذه الأغراض وما أشار إليه غيره من المفسرين يمكن القول أن المقصد الأساس والغرض الأكبر من سورة الحج هو **مقصد عقائدي تعبدي يدور حول توحيد الله وتعظيمه والخضوع لقوته وتحقيق عبوديته وتقواه.**

ومن بين الأغراض التي ذكرها ابن عاشور والمتعلقةِ مباشرة بهذا المقصد الأساس في مستهل سورة الحج: "

– خطاب الناس بأمرهم أن يتقوا الله ويخشوا يوم الجزاء وأهوالَه.

– والاستدلال على نفي الشرك وخطاب المشركين بأن يقلعوا عن المكابرة في الاعتراف بانفراد الله تعالى بالإلهية وعن المجادلة في ذلك اتباعا لوساوس الشياطين، وأن الشياطين لا تغني عنهم شيئا ولا ينصرونهم في الدنيا وفي الآخرة.

- وتفظيع جدال المشركين في الوحدانية بأنهم لا يستندون إلى علم وأنهم يعرضون عن الحجة ليضلوا الناس.

– والتعريض بالمشركين بتكبرهم عن سنة إبراهيم عليه السلام الذي ينتمون إليه ويحسبون أنهم حماة دينه وأمناء بيته وهم يخالفونه في أصل الدين.

– وتذكير لهم بما منّ الله عليهم في مشروعية الحج من المنافع فكفروا نعمته.

– وتنظيرهم في تلقي دعوة الإسلام بالأمم البائدة الذين تلقوا دعوة الرسل بالإعراض والكفر فحل بهم العذاب "[12].

وذكر سيد قطب في تفسيره: " والذي يغلب على السورة هو موضوعات السور المكية، وجوّ السور المكية، فموضوعات التوحيد والتخويف من الساعة، وإثبات البعث، وإنكار الشرك، ومشاهد القيامة، وآيات الله المبثوثة في صفحات الكون ... بارزة في السورة، وإلى جوارها الموضوعات المدنية من الإذن بالقتال، وحماية الشعائر، والوعد بنصر الله لمن يقع عليه البغي وهو يرد العدوان، والأمر بالجهاد في سبيل الله، والظلال الواضحة في جو السورة كلها هي ظلال القوة والشدة والعنف والرهبة، والتحذير والترهيب واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والاستسلام "[13].

وذكر عبد الله شحاته: " تتضح في سورة الحج سماتُ القوة والعنف، وأساليبُ الرهبة والتحذير، واستجاشة مشاعر التقوى والوجل والخوف من بأس الله "[14].

---

[11] : ينظر: وصفي عاشور، التفسير المقاصدي لسور القرآن، ص 14.

[12] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 17/183-184.

[13] : قطب سيد، في ظلال القرآن، 4/2406.

[14] : شحاته عبد الله محمود، أهداف كل سورة ومقاصدها، ص 243.

- **التطبيق العملي لهذا المقصد:**

قد يتساءل متسائل مستغربا كيف أن سورة الحج من السور المدنية التي يفترض أن يغلب عليها طابع التشريع وآيات الأحكام، وأن الحج عبادة بدنية لها مجموعة من الأركان والأفعال والأقوال، إلا أن المقصد الأساس للسورة يدور حول توحيد الله تعالى وتعظيمه، ونفي الشرك والتذكير بأهوال يوم القيامة، والتخويف من عذاب الله تعالى وعقابه، والإشارة إلى جزاء المكذبين والأمم البائدة ...

ولا غرابة في ذلك إذا ما تدبرنا الأثر الفعلي والتطبيق العملي لهذا المقصد، فسورة الحج نزلت لمعالجة الجانب الباطني والروحي لركن الحج، فكما عالجت سورة البقرة الجانب التشريعي للحج بذكر أحكامه وما يتعلق بها، فقد جاءت سورة الحج لبيان الجانب الأهم والغاية الأسمى وهو عمل القلوب، وكما قيل حج القلوب قبل حج الأبدان، وعليه فإن كل آيات السورة وموضوعاتها صبت في هذا المقصد.

وهذا ما يعانيه أكثر المسلمين اليوم وهو غياب الجانب الروحي والاستحضارِ القلبي في عباداتنا ومعاملاتنا، فأصبح كثير منا هياكل بلا أرواح، ولا يأخذ من الإسلام إلا الاسم والظاهر، ولا من العبادات إلا الأفعال والأقوال، أما أصحاب القلوب الحاضرة والأفئدة العاقلة فقليل ما هم، مع أن الله تعالى قد رتب جزاء الأعمال ومقدار الأجور على قدر استحضار القلب، فرتب أجر الصلاة على مقدار الخشوع، كما ورد في الحديث: « إن الرجل لينصرف وما كتب له إلى عشر صلاته تسعها ... نصفها »[15]، ورتب قبول الدعاء على استحضار القلب، قال صلى الله عليه وسلم: « واعلموا أن الله لا يستجيب دعاء من قلبٍ غافلٍ لاهٍ »[16]، وقال عليه الصلاة والسلام في أجر الصيام والقيام: « رب صائم ليس له من صيامه إلا الجوع، ورب قائم ليس له من قيامه إلا السهر »[17]، وهكذا.

والجزاء على الأعمال إنما يكون بقدر صدق المقاصد والنيات، والعطايا على قدر النوايا، فقد يبلغ المرء بنيته ما لا يبلغه بعمله، بل إن النية الصادقة قد تحصّل للعبد أجر العمل دون أن يعمله، فعن أبي كبشة الأنماري أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: « إنما الدنيا لأربعة نفر، عبد رزقه الله مالا وعلما فهو يتقي فيه ربه، ويصل فيه رحمه، ويعلم لله فيه حقا، فهذا بأفضل المنازل، وعبد رزقه الله علما ولم يرزقه مالا فهو صادق النية يقول: لو أن لي مالا لعملت بعمل فلان فهو بنيته فأجرهما سواء »[18]، وفي حديث آخر قال صلى الله عليه وسلم: « من سأل الله الشهادة بصدق، بلّغه الله منازل الشهداء، وإن مات على فراشه »[19].

---

[15] : أخرجه أبو داود في سننه، باب ما جاء في نقصان الصلاة، حديث رقم (796)، قال الألباني: حديث حسن.

[16] : أخرجه الترمذي في سننه، باب جامع الدعوات عن النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (3479)، قال الألباني: حديث حسن.

[17] : أخرجه ابن ماجه في سننه، باب ما جاء في الغيبة والرفث للصائم، حديث رقم (1690)، قال الأرناؤوط: حديث صحيح.

[18] : أخرجه الترمذي في سننه، باب مثل الدنيا مثل أربعة نفر، حديث رقم (2325)، وقال: حديث حسن صحيح.

[19] : أخرجه مسلم في صحيحه، باب استحباب طلب الشهادة في سبيل الله، حديث رقم (1909).

فأهم ما يستفيده الحاج والمعتمر من المقصد الأساس لسورة الحج هو محاولة تشغيل معمل قلبه ورحى نفسه، بأن يستحضر قلبه وفؤاده في كل فعل وقول، في كل حركة وسكون، في كل غدوة وروحة ... يقوم بها في تلك البقاع المقدسة، وأن يحج بقلبه وروحه كما يحج بجسده وبدنه، وأن لا يحرم نفسه من استحضار تلك الذكريات الخالدة والنسمات المباركة التي تحوم حول هذا البيت، فحين يرى الكعبة يتذكر كيف أقام قواعدها إبراهيم وابنه إسماعيل عليهما السلام، وكيف فض النبي صلى الله عليه وسلم النزاع بين سادات قريش في وضع الحجر الأسود عند إعادة بنائه، ووضعه بيديه الكريمتين، وحين يصعد الصفا والمروة ويرى زمزم يتذكر قصة هاجر ورضيعها، وحين يدخل المسجد النبوي يتذكر كيف قدم النبي صلى الله عليه وسلم على القصواء وأمر ببنائه، وكيف كان هذا المسجد هو بيت النبوة ومهبط الوحي ودار الخلافة ومنبر الدعوة ومركز الحكم والإصلاح ... ففي كل شبر وركن من هذه البقاع ذكرى وعبرة.

4. المقاصد العامة لسورة الحج وتجلياتها العملية

سبق الإشارة أن لسورة الحج جملةً من المقاصد العامة المرتبطة بموضوعاتها الأساسية، ولن تسعفنا دراسة موجزة كهذه للإشارة إلى كل هذه المقاصد، بل سنركز على أهمها؛ والتي تصب في خدمة المقصد الأساس المذكور آنفا، كما لها تجلي عملي ظاهر وأثر مباشر على الحاج والمعتمر.

أولا– تصحيح الاعتقـــاد

أول ما أشارت إليه الآيات المتعلقة بركن الحج في السورة هي الرجوع إلى قصة بناء هذا البيت المبارك، وكيف أن الله تعالى أمر نبيه إبراهيم عليه السلام أن يقيمه على التوحيد ونفي الشرك، وأن يطهره من كل مظاهر الوثنية وما يُعبد من دون الله، قال تعالى: { وَإِذْ بَوَّأْنا لِإِبْراهِيمَ مَكانَ الْبَيْتِ أَنْ لَا تُشْرِكْ بِي شَيْئاً وَطَهِّرْ بَيْتِيَ لِلطَّائِفِينَ وَالْقائِمِينَ وَالرُّكَّعِ السُّجُودِ } [الحج 26].

قال ابن عاشور في تفسيره: " وكان أصل الدين هو نفي الإشراك بالله، فعُلم أن البيت جُعل معلما للتوحيد، بحيث يشترط على الداخل إليه أن لا يكون مشركا، فكانت الكعبة لذلك أول بيت وضع للناس، لإعلان التوحيد ... وإضافة البيت إلى ضمير الجلالة تشريف للبيت، والتطهير: تنزيهه عن كل خبيث معنى كالشرك والفواحش وظلم الناس وبث الخصال الذميمة، وحسا من الأقذار ونحوها "[20].

وبناء على هذا فأول ما يحرص عليه الحاج والمعتمر أن يُسْلم قلبه لله وحده، وأن يطهّره من كل شوائب الشرك والإلحاد، وبخاصة ممن كان يعتقد في الأضرحة والقبور، أو ممن يجعل بينه وبين الله وسائط من أولياء وغيرهم، فليعلم علم اليقين أن الشرك محبط لكل الأعمال، ولا يُقبل معه قربة ولا طاعة، قال تعالى: { وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ

[20] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 241/17.

مِنْ قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ } [الزمر 65]، وورد في الحديث القدسي عن أبي هريرة، قال: « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: قال الله تبارك وتعالى: أنا أغنى الشركاء عن الشرك، من عمل عملا أشرك فيه معي غيري، تركته وشركه »[21].

إضافة إلى طهارة القلب من الشرك الحسي على الحاج أن يطهر قلبه من الشرك المعنوي، فهناك من يعبد هواه، وهناك من يعبد الدرهم والدينار، وهناك من يعبد زينة الدنيا من ملبس ومأكل ... وهذا ما حذر منه النبي صلى الله عليه وسلم بقوله: « تعس عبد الدينار، والدرهم، والقطيفة، والخميصة، إن أعطي رضي، وإن لم يعط لم يرض»[22]

وعلى الحاج أن يستشعر توحيد الله تعالى في كل أعماله وأقواله، وبخاصة في المواضع الآتية:

1- حين يلبس الحاج لباس الإحرام ، فأول ما يقوم به هو التلبية، والتلبية شعار التوحيد ونفي الشرك، ورد عن جابر بن عبدالله رضي الله عنه في وصف حجة النبي صلى الله عليه وسلم قال: " فأهلّ بالتوحيد لبيك اللهم لبيك، لبيك لا شريك لك لبيك، إن الحمد والنعمة لك والملك، لا شريك لك "[23]، فالتلبية تربية للقلب وتهذيب للنفس على توحيد الله تعالى ونفي الشريك عنه، ونبذ كل من سواه من المعبودات الباطلة.

2- أثناء الوقوف بعرفة، يقف كل الحجاج على صعيد واحد، في زمن واحد، بلباس واحد، ذاكرين مبتهلين لرب واحد، وخير الدعاء يوم عرفة كلمة التوحيد، قال النبي صلى الله عليه وسلم: « خير الدعاء دعاء يوم عرفة، وأفضل ما قلت أنا والنبيّون من قبلي لا إله إلا الله » [24]، رافعين شعارا واحد هو شعار التوحيد " لبيك اللهم لبيك "، وبذلك تزول كل الشعارات الزائفة والباطلة، التي تُرفع بين الفينة والأخرى من بعض ضعفاء القلوب، بالدعوة إلى التعصب لمذهب أو لجنس أو لقبيلة أو لحزب، مما يثير الشحناء والبغضاء ويؤجج نار الفتنة والفرقة بين المسلمين، فهذه رسالة للمسلمين في كل بقاع الأرض بأن يجتمعوا على شعار واحد، وأن يرفعوا راية لا إله إلا الله، وأن يبطلوا جميع الشعارات التي كانت سببا في فرقتهم وتخاصمهم، فيتوحد صفهم ويقوى عزمهم وترتفع شوكتهم، ويكونوا يدا واحدة على أعدائهم.

---

[21] : أخرجه مسلم في صحيحه، باب من أشرك في عمله غير الله، حديث رقم (2985).

[22] : أخرجه البخاري في صحيحه، باب ما يتقى من فتنة المال، حديث رقم (6435).

[23] : أخرجه مسلم في صحيحه، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (1218).

[24] : أخرجه الترمذي في سننه، باب في دعاء يوم عرفة، حديث رقم (3585)، قال الألباني: حديث حسن.

3- عند الصعود على الصفا والمروة: يستشعر الحاج الذكر المأثور الذي يفيض توحيدا وتعظيما لله، فعن جابر رضي الله عنه قال: « فاستقبل القبلة، فوحَّد الله وكبَّره وقال: لا إله إلا الله وحده لا شريك له، له الملك، وله الحمد، وهو على كل شيء قدير، لا إله إلا الله وحده، أنجز وعده، ونصر عبده، وهزم الأحزاب وحده »[25].

4- بعد الانتهاء من الطواف: يسن للحاج والمعتمر أن يصلي ركعتين، فيقرأ في الأولى سورة الكافرون وفي الثانية سورة الإخلاص، وهاتين السورتين من ركائز توحيد الله تعالى ونفي الشرك، فالسورة الأولى تكرر فيها صيغ النفي لأي لقاء بين عقيدة التوحيد والشرك، فهي تقرر المفاصلة بين الدارين، والسورة الثانية فيها تقرير للتوحيد بأنواعه عن طريق الإثبات، وقراءة الحاج لهاتين السورتين أول ما يقدُم في طواف القدوم، وعندما يهم بالرحيل في طواف الوداع، يبيّن أن أعمال الحج إنما شُرعت لتحقيق التوحيد ونفي الشرك، وأن أفعال الحج كلها تبدأ بالتوحيد وتختم به.[26]

5- عند ذبح النسك: قال تعالى: { لِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنْسَكًا لِيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُمْ مِنْ بَهِيمَةِ الْأَنْعَامِ فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } [الحج 34]، قال ابن عاشور في تفسيره: " فإلهكم إله واحد فله أسلموا أي: إذ كان قد جعل لكم منسكا واحدا فقد نبهكم بذلك أنه إله واحد، ولو كانت آلهة كثيرة لكانت شرائعها مختلفة، وهذا التفريع الأول تمهيد للتفريع الذي عقبه وهو المقصود، فوقع في النظم تغيير بتقديم وتأخير، وأصل النظم: فلله أسلموا، لأن إلهكم إله واحد، وتقديم المجرور في فله أسلموا للحصر، أي أسلموا له لا لغيره، والإسلام: الانقياد التام، وهو الإخلاص في الطاعة، أي لا تخلصوا إلا لله، أي فاتركوا جميع المناسك التي أقيمت لغير الله فلا تنسكوا إلا في المنسك الذي جعله لكم، تعريضا بالرد على المشركين "[27].

ثانيا- مراقبة النية وإصلاح القصد:

بعد أن يُسْلم الحاج قلبه لله، ويطهّره من كل معبود سواه، عليه أن يراقب نيته وقصده، فيخلص نية حجه لله وحده، ولا يقصد بحجه عدا وجه الله تعالى، ولا يرجو ثوابا إلا منه، وأن يستحضر عند إحرامه قول النبي صلى الله عليه وسلم: « إنما الاعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى »[28]، فمن كان حجه لله فحجه لله، ومن كان حجه لدنيا يصيبها أو سمعة يدركها فحجه إلى ما حج إليه، ولما أراد النبي صلى الله عليه وسلم الحج قال: « اللهم حجة لا رياء فيها ولا سمعة »[29]، والرياء هو الشرك الأصغر الذي كان النبي صلى الله عليه وسلم يخافه على أمته فقال: « إن أخوف ما أخاف عليكم الشرك الأصغر، قالوا يا رسول الله وما الشرك الأصغر؟ قال: الرياء، يقول عز وجل

---

[25] : أخرجه ابن حبان في صحيحه، باب الخروج إلى الصفا بعد استلام الركن، حديث رقم (2757).

[26] : ينظر: الشدي عادل بن علي، مقاصد الحج في القرآن الكريم، ص 08.

[27] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 260/17.

[28] : أخرجه البخاري في صحيحه، باب بدأ الوحي، حديث رقم (01).

[29] : أخرجه ابن ماجه في سننه، باب الحج على الرحل، حديث رقم (2890)، قال الألباني: حديث صحيح.

يوم القيامة إذا جازى الناس بأعمالهم اذهبوا إلى الذين كنتم تراؤون في الدنيا، هل تجدون عندهم خيرا »[30]، قال ابن القيم: " وأمّا الشرك في الإرادات والنيات، فذلك البحر الذي لا ساحل له، وقلّ من ينجو منه، فمن أراد بعمله غير وجه الله، ونوى شيئا غير التقرب إليه، وطلب الجزاء منه، فقد أشرك في نيته وإرادته "[31].

ولما جات سورة الحج لمعالجة القلوب والاهتمام بالنيات، فقد شرّعت حكما خاصا بالنية في البيت الحرام، إذ من المقرر أن الله تعالى لا يحاسب العبد على نيته ما لم يعمل أو يتكلم، بل ورد أن الله يجازي من همّ بالسيئة فلم يعملها حسنة كاملة، إلا أن هذا التقرير لا يجري على النية في البيت الحرام، فمجرد نية السوء أو الظلم فيه لها جزاء عظيم وإن لم يلحقها قول أو عمل، قال تعالى: { وَمَنْ يُرِدْ فِيهِ بِإِلْحَادٍ بِظُلْمٍ نُذِقْهُ مِنْ عَذابٍ أَلِيمٍ } [الحج 25]، قال السدي: " قيل المراد بهذه الآية أنه يعاقب بمجرد الإرادة للمعصية في ذلك المكان، وقد ذهب إلى هذا ابن مسعود وابن عمر والضحاك وابن زيد وغيرهم حتى قالوا: لو هم الرجل في الحرم بقتل رجل بعدن لعذبه الله "[32].

فعلى الحاج أن يراقب نيته وقصده في بيت الله الحرام كما يراقب عمله وجوارحه، وليحذر أن تراود قلبه نيةُ سوء فتكون سببا في خسرانه وبطلان عمله.

ثالثا– تقوى الله وتعظيمه:

تعددت آيات سورة الحج التي تدعو إلى تقوى الله ومخافته وتعظيم أوامره، منها:

قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } [الحج 01].

وقوله: { ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ حُرُماتِ اللَّهِ فَهُوَ خَيْرٌ لَهُ عِنْدَ رَبِّهِ } [الحج 30].

وقوله: { ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } [الحج 32].

وقوله: { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الحج 34-35].

وقوله: { لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ } [الحج 37].

في تفسير قوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ } [الحج 01] أشار ابن عاشور إلى فائدة من إضافة التقوى إلى الرب عز وجل فقال: " وفي التعبير عن الذات العلية بصفة الرب مضافا إلى ضمير المخاطبين إيماء إلى استحقاقه أن يُتّقى لعظمته بالخالقية، وإلى جدارة الناس بأن يتقوه لأنه بصفة تدبير الربوبية

---

[30] : أخرجه أحمد في مسنده، حديث محمود بن لبيد، حديث رقم (23630)، قال الأرناؤوط: حديث حسن.

[31] : الجوزية ابن القيم، الداء والدواء، 312/1.

[32] : القنوجي صديق بن حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن، 36/5.

لا يأمر ولا ينهى إلا لمرعيّ مصالح الناس ودرء المفاسد عنهم"[33]، فالله تعالى هو الخالق المدبر، ولا يشرّع أمرا إلا لخير عباده ونفعهم، فحري بعبده أن يتقيه في كل أفعاله وأقواله، وبخاصة من نوى حجا أو عمرة، فأحرى به أن يتقي ربه في نفسه بأن يتوب إلى الله توبة نصوحا، ويتقي الله في غيره بأن يرد المظالم إلى أهلها، ويؤدي الحقوق إلى مستحقيها، ويطلب الصفح والعفو من كل من أساء إليه، هكذا حتى يُقبِل على ربه سليم القلب طاهر الفؤاد زكي النفس.

وإذا ما أردنا أن نستنبط الحكمة من ذكر الزلزلة وأهوال يوم القيامة، والتذكير بالثواب والعقاب والجزاء والحساب في بداية السورة، لوجدنا أنه ليس أشبه بيوم الحشر من الحج، فالحج مشهد مصغر من مشاهد يوم القيامة، فقيام ذلك الجمع الغفير من الحجاج على صعيد واحد بلباس واحد، كل واحد منشغل بنفسه، خاضع مطرق متضرع لربه، يلهج لسانه بدعائه أن يتقبل عمله ويقيه عذابه ويعتقه من ناره، يذكّر الحاج بموقف يوم الحشر وما يقع فيه من أهوال، تتفطر منها القلوب وتذهل لها العقول، قال تعالى: {يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَى وَمَا هُم بِسُكَارَى وَلَكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ } [الحج 02].

وقد أشار ابن عاشور لنكتة طيبة عند تفسيره لهذه الآية فقال: " وأُطلقت الرؤية على إدراكها الواضح الذي هو كرؤية المرئيات لأن الزلزلة تسمع ولا ترى "[34]، فرؤية الحاج ومشاهدته لذلك الموقف، وما يصيبه من ذهول ودهشة، وما يقع فيه من تزاحم وتدافع، كل هذا كأنه صورة واقعية مرئية للزلزلة وأهوالها يوم القيامة.

كما أن لباس الإحرام الذي يرتديه الحاج منذ أن يهل بحجه، يذكرنا بحقيقة غالبا ما نغفل عنها ونكره ذكرها، وكلنا مدركها وشارب من كأسها، إنها حقيقة الموت وكأس مفارقة هذه الحياة، وما يعقبها من حياة برزخية، ثم حياةٌ أبديةٌ، إما نعيم في الجنة أو عذاب في جهنم، فما أشبه لباس الإحرام بتلك الأكفان، فالحاج يلبس بنفسه لباس إحرامه، والميت يُلفّ في كفنه، والحاج بعد إحرامه يصلِّي ويدعو ربه، والميت يصلَّى عليه ويُدعى له، والحاج يفارق أهله ويقصد بيت الله الحرام، والميت يفارق أهله ويوضع في قبره، والحاج يقف على عرفة سائلا ربه أن يصلح عمله ويتقبله، والميت يأتيه الملكان فيسألانه عن عمله، والحاج يرجع بعد حجه إلى أهله إما بحج مبرور وسعي مشكور، وإما بعمل مردود وسعي مثبور، والميت يرجع إلى ربه إما فائزا بجناته، وإما خائبا ملقى في نيرانه.

فما أحوج الحاج أن يستشعر تلك المواقف، ويتذكر هذه اللحظات، فيزداد خشية وخشوعا، وخوفا وطمعا، وطاعة ورهبة، ولذا كانت وصية النبي صلى الله عليه وسلم: « أكثروا ذكر هادم اللذات » يعني الموت[35].

---

[33] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 186/17.

[34] : المصدر نفسه، 188/17.

[35] : أخرجه ابن ماجه في سننه، باب ذكر الموت والاستعداد له، حديث رقم (4258)، قال الأرناؤوط: حديث حسن.

ويزداد بيان أهمية عمل القلوب وتحقيق تقوى الله في أعمال الحج في قوله تعالى: { لَنْ يَنالَ اللَّهَ لُحُومُها وَلا دِماؤُها وَلكِنْ يَنالُهُ التَّقْوى مِنْكُمْ } [الحج 37]، قال ابن عاشور في تفسير هذه الآية: " دل على أنا سخرناها لكم لتشكروني أنه لا انتفاع لله بشيء من لحومها ولا دمائها حين تتمكنون من الانتفاع بها، فلا يريد الله منكم على ذلك إلا أن تتقوه "[36].

وقال السعدي في تفسيره: " أي: ليس المقصود منها ذبحها فقط، ولا ينال الله من لحومها ولا دمائها شيء، لكونه الغني الحميد، وإنما يناله الإخلاص فيها والاحتساب، والنية الصالحة، ولهذا قال: {وَلَكِنْ يَنَالُهُ التَّقْوَى مِنْكُمْ}، ففي هذا حث وترغيب على الإخلاص في النحر، وأن يكون القصد وجه الله وحده، لا فخرا ولا رياء، ولا سمعة، ولا مجرد عادة، وهكذا سائر العبادات، إن لم يقترن بها الإخلاص وتقوى الله، كانت كالقشور الذي لا لب فيها، والجسد الذي لا روح فيه "[37].

ومعرفة العبد لعظمة الله تعالى وقوته، تقتضي معرفته لضعفه وهوانه، فقد استهلت سورة الحج ببيان عظمة الله واختُتِمت بإظهار ضعف الإنسان، وحقارة ما يعبد من دون الله قال تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ ضُرِبَ مَثَلٌ فَاسْتَمِعُوا لَهُ إِنَّ الَّذِينَ تَدْعُونَ مِنْ دُونِ اللَّهِ لَنْ يَخْلُقُوا ذُباباً وَلَوِ اجْتَمَعُوا لَهُ وَإِنْ يَسْلُبْهُمُ الذُّبابُ شَيْئاً لَا يَسْتَنْقِذُوهُ مِنْهُ ضَعُفَ الطَّالِبُ وَالْمَطْلُوبُ } [الحج 73]، قال ابن عاشور في تفسيره للآية: " في افتتاح السورة ب يا أيها الناس وتنهيتها بمثل ذلك شَبَه برد العَجُز على الصدر، ومما يزيده حسنا أن يكون العَجُز جامعا لما في الصدر وما بعده، حتى يكون كالنتيجة للاستدلال والخلاصة للخُطبة والحوصلة للدرس "[38].

ومعرفة العبد لضعفه وذله تربيةٌ له على الافتقار والخضوع لله تعالى، وتطهيرٌ لقلبه من كل شوائب العُجب والتكبر، قال تعالى: { فَإِلَهُكُمْ إِلَهٌ وَاحِدٌ فَلَهُ أَسْلِمُوا وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ } [الحج 34]، قال ابن عاشور في تفسيره: " والمخبت: المتواضع الذي لا تكبر عنده، وأصل المخبت من سلك الخَبْت، وهو المكان المنخفض ضد المِصْعِد، ثم استعير للمتواضع كأنه سلك نفسه في الانخفاض، والمراد بهم هنا المؤمنون، لأن التواضع من شيمهم كما كان التكبر من سمات المشركين "[39]، والكبر من أرذل الخصال وأشنع الأوصاف، ورد فيه الوعيد الشديد قال صلى الله عليه وسلم: " لا يدخل الجنة من كان في قلبه مثقال ذرة من كبر "[40].

---

[36] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 267/17.

[37] : السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ص 538.

[38] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 338/17.

[39] : المصدر نفسه، 261/17.

[40] : أخرجه مسلم في صحيحه، باب تحريم الكبر وبيانه، حديث رقم (131).

ومن مظاهر التذلل والخضوع لله تعالى في سورة الحج الإكثار من السجود لله تعالى، فالحج هي السورة الوحيدة التي ضمت سجدتين، فعن عقبة بن عامر قال: «قلت: يا رسول الله أفضلت سورة الحج على سائر القرآن بسجدتين؟ قال: نعم»[41] ـ وإن كان في المسألة خلاف بين أهل الأداء ـ وفي هذا تنبيه للحاج على الإكثار من السجود في خير مساجد الأرض، المسجدِ الحرام والمسجدِ النبوي، ففيهما تتضاعف الحسنات وترتفع الدرجات، والسجود من أعظم مظاهر الخضوع إذ يضع العبد أشرف ما يملك؛ وجهه وأنفه على أوضع وأحقر مكان؛ الأرض والتراب، تعبدا وطاعة لله تعالى، فجزى الله تعالى عبده الساجد على قدر خضوعه، بأن رفع مقامه وجعله في أقرب ما يكون إليه، قال صلى الله عليه وسلم: " أقرب ما يكون العبد إلى ربه وهو ساجد "[42].

كما أن لباس الإحرام من أعظم ما يربي الحاج على التواضع والخضوع والافتقار، فالحاج يتجرد من كل لباس زينة وشهرة، ويحرم في فوطتين بسيطتين، يظهر على مظهره الحاجة والفاقة، فيستشعر بذلك ما يعانيه إخوانه الفقراء والمساكين، الذين لا يجدون ما يؤويهم أو يستر عوراتهم.

رابعا– المداومة على ذكر الله:

من أعظم مقاصد الحج إدامة ذكر الله تعالى، بل الحج ذكر لله من أوله إلى آخره، ولذا تعددت الآيات في سورة الحج التي تحث على الذكر، منها:

قوله تعالى: { وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ فِي أَيَّامٍ مَّعْلُومَاتٍ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ } [الحج 28].

وقوله: { وَلِكُلِّ أُمَّةٍ جَعَلْنَا مَنسَكًا لِّيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ عَلَى مَا رَزَقَهُم مِّن بَهِيمَةِ الأَنْعَامِ } [الحج 34].

وقوله: { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ } [الحج 34-35].

وقوله: { كَذَلِكَ سَخَّرَهَا لَكُمْ لِتُكَبِّرُوا اللَّهَ عَلَى مَا هَدَاكُمْ وَبَشِّرِ الْمُحْسِنِينَ }[(الحج 37].

وقد أُثرت أذكار مخصوصة بكل منسك من مناسك الحج، قال صلى الله عليه وسلم: " إنما جُعل رمي الجمار، والسعي بين الصفا والمروة، لإقامة ذكر الله "[43]، هذا فضلا عن الأذكار العامة المعروفة، فعلى الحاج ألا يغفل عن ذكر الله أينما حل وارتحل، بل لا يزال لسانه رطبا بذكر الله، كما أوصى بذلك النبي صلى الله عليه وسلم: " لا يزال لسانك رطباً من ذكر الله عزَّ وجل "[44].

---

[41] : أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في السجدة في الحج، حديث رقم (578)، قال الألباني: ضعيف.

[42] : أخرجه مسلم في صحيحه، باب ما يقال في الركوع والسجود، حديث رقم (482).

[43] : أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في كيف ترمى الجمار، حديث رقم (902)، قال الترمذي: حديث حسن صحيح.

[44] : أخرجه الترمذي في سننه، باب ما جاء في فضل الذكر، حديث رقم (3375)، قال الترمذي: حديث حسن غريب من هذا الوجه.

خامسا– الانقياد لأمر الله تعالى واتباع رسوله:

لا شك أن للحج جملةً من المناسك والشعائر لا يفقه العبد معناها ولا يدرك كنها ومرماها، إلا أن الحاج يؤديها انقيادا لأمر الله تعالى واتباعا لنبيه صلى الله عليه وسلم، ويعظمها طاعة وتقوى لله عز وجل، قال تعالى: { ذلِكَ وَمَنْ يُعَظِّمْ شَعائِرَ اللَّهِ فَإِنَّها مِنْ تَقْوَى الْقُلُوبِ } [الحج 32]، قال ابن عاشور في تفسيره: " فكل ما أمر الله به بزيارته أو بفعل يقع فيه فهو من شعائر الله، أي مما أشعر الله الناس وقرره وشَهَره، وهي معالم الحج: الكعبة، والصفا والمروة، وعرفة، والمشعر الحرام، ونحوها من معالم الحج "[45]، فالله تعالى هو الذي قرر هذه المشاعر، وأوحى بها إلى نبيه عليه السلام، والذي علمها أصحابه بقوله : « لتأخذوا مناسككم؛ فإني لا أدري لعلِّي لا أحج بعد حجتي هذه »[46]، فانقاد الصحابة رضي الله عنهم لوحي ربهم وأمر نبيهم، وتتبعوا النبي صلى الله عليه وسلم في كل صغيرة وكبيرة، يقول جابر بن عبد الله رضي الله عنهما واصفا حجة النبي صلى الله عليه وسلم: " فنظرت إلى مد بصري بين يديه من راكبٍ وماشٍ، وعن يمينه مثل ذلك، وعن يساره مثل ذلك، ومن خلفه مثل ذلك، ورسول الله صلى الله عليه وسلم بين أظهرنا، وعليه ينزل القرآن، وهو يعرف تأويله، وما عمل به من شيء عملنا به "[47].

فليس هناك عبادة من العبادات يتجلى فيها الانقياد التام لأمر الله، والمتابعة المطلقة لرسوله كالحج؛ فالحاج يتقلب في مناسك متنوعة، ويتنقل بين مشاعر متعددة، لا يعقل لكثير منها معنى، سوى الامتثال لأمر الله، والتأسي برسول الله، فهو يقبِّل حجراً تارةً، ويرمي حجراً تارةً أخرى؛ وهو يتجاوز مشعراً، ليصل إلى آخر، ثم يعود إلى الأول؛ وهو يطوف سبعاً، ويسعى سبعاً، ويرمي بسبع، دون أن يدرك معنى خاصاً للعدد، وقد فقه الصحابة هذا المعنى، فلما قبَّل عمر رضي الله عنه الحجر الأسود، قال: " إني لأعلم أنك حجر، لا تضر ولا تنفع، ولولا أني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقبلك، ما قبلتك "[48].

قال الحافظ ابن حجر: " وفي قول عمر هذا، التسليم للشارع في أمور الدين، وحسن الاتباع فيما لم يكشف عن معانيها، وهو قاعدة عظيمة في اتباع النبي صلى الله عليه وسلم فيما يفعله، ولو لم يُعلم الحكمة فيه "[49].

---

[45] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 256/17.

[46] : أخرجه مسلم في صحيحه، باب استحباب رمي جمرة العقبة يوم النحر راكبا، وبيان قوله صلى الله عليه وسلم «لتأخذوا مناسككم»، حديث رقم (1297).

[47] : أخرجه مسلم في صحيحه، باب حجة النبي صلى الله عليه وسلم، حديث رقم (1218).

[48] : متفق عليه: البخاري، باب ما جاء في الحجر الأسود، حديث رقم (1520)، مسلم، كتاب الحج، باب استحباب تقبيل الحجر الأسود في الطواف، حديث رقم (1270).

[49] : العسقلاني ابن حجر، فتح الباري، 463/3.

5. المقاصد الخاصة لسورة الحج وفوائدها على الحاج والمعتمر

زيادة على ما تم ذكره من مقاصد عامة، فهناك بعض المقاصد الخاصة التي تضمنتها بعض آيات السورة، والتي يمكن للحاج والمعتمر أن ينتفع بها، ومنها:

أولا– المساواة بين المسلمين وتعارفهم والتآخي بينهم

ورد الإشارة إلى مبدأ المساواة في سورة الحج في قوله تعالى: { إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا وَيَصُدُّونَ عَنْ سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمَسْجِدِ الْحَرَامِ الَّذِي جَعَلْنَاهُ لِلنَّاسِ سَوَاءً الْعَاكِفُ فِيهِ وَالْبَادِ } [الحج 25]، قال ابن عاشور في تفسيره: " ووصف المسجد بقوله: الذي جعلناه للناس الآية للإيماء إلى علة مؤاخذة المشركين بصدهم عنه لأجل أنهم خالفوا ما أراد الله منه، فإنه جعله للناس كلهم يستوي في أحقية التعبد به العاكف فيه؛ أي المستقر في المسجد، والبادي؛ أي البعيد عنه إذا دخله ... وقوله سواء لم يبين الاستواء في ماذا لظهور أن الاستواء فيه بصفة كونه مسجدا إنما هي في العبادة المقصودة منه ومن ملحقاته وهي: الطواف، والسعي، ووقوف عرفة "[50].

وقد وردت الآية في ذم مشركي قريش لاستئثارهم بالمسجد الحرام، وصدهم المسلمين إذ ذاك عن دخوله أو الطواف فيه، فأخبر تعالى أنه قد جعل بيته للناس سواء، فلا أثرة لمقيم فيه على حالٍّ به، وإن كانت الآية قد اختصت بالإشارة إلى مبدأ المساواة بالنسبة للإقامة والسكن، فإن مظاهر المساواة والتآخي بين المسلمين في موسم الحج أوسعُ من ذلك، حيث يجتمع المسلمون عربهم وعجمهم، أبيضهم وأسودهم، غنيهم وفقيرهم، قاصيهم ودانيهم، كبيرهم وصغيرهم ... بلباس واحد في مكان واحد، لا فرق بينهم ولا تفاضل ولا تمايز إلا بالتقوى، عن أبي نضرة قال حدثني من سمع خطبة رسول الله صلى الله عليه وسلم في وسط أيام التشريق فقال: " إن أباكم واحد، ألا لا فضل لعربي على أعجمي، ولا لعجمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا أسود على أحمر إلا بالتقوى"[51].

وعليه فإن من أعظم أسرار الحج ما يقع فيه من تعارف بين المسلمين باختلاف أوطانهم ولغاتهم وأصولهم، مصداقا لقوله تعالى: { يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا } [الحجرات 13]، فيلتقي المسلمون ببعض، ويحاكي بعضهم بعضا، ويحمل بعضهم همّ بعض، ويعين قويهم ضعيفهم، ويرحم كبيرهم صغيرهم، ويوقر صغيرهم كبيرهم، فتتعزز أواصل الأخوة والتآلف والتآزر بين المسلمين، في أجمل صورة وأبهى مشهد، وهذه هي أخوة الإيمان التي ارتضاها الله تعالى لعباده بقوله: {إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ} [الحجرات 10].

---

[50] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 237/17.

[51] : أخرجه البيهقي في شعب الإيمان، حديث رقم (5137)، 289/4.

ثانيا– التدرب على الصبر وشظف العيش

قال تعالى: { وَبَشِّرِ الْمُخْبِتِينَ (34) الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَالصَّابِرِينَ عَلَى مَا أَصَابَهُمْ } [الحج 34-35]، بينت الآية أنه من أهم صفات المخبتين الصبر، والصبر أنواع: صبر على الأذى وصبر على الطاعة وصبر على المعصية، والحج مدرسة عظيمة للتدرب على الصبر بكل أنواعه، فيصبر على أذى غيره ولا يرد السيئة بالسيئة، بل يدرب نفسه على الصفح والعفو والتسامح، ويصبر على ترك المعصية، خاصة ممن ابتلي بإدمان بعض المنكرات كشرب الدخان ومشاهدة المحرمات وغيرها، ويصبر على الطاعة، وبخاصة ممن اعتاد الترف ورغد العيش، فيدرب نفسه على الخشونة وتحمل الصعاب لأيام معدودات، من ازدحام ومشقة في التنقل من مشعر إلى آخر، ومبيت في خيم، وزهد في المأكل والمشرب ...، وما سمي الإحرام بذلك إلا لأن الحاج يحرم نفسه من كثير من الملذات والمباحات التي كان يتمتع بها قبل إحرامه، مثل الطيب وحلق الشعر والصيد وغيرها من محظورات الإحرام.

ثالثا– تدريب نفس المسلم على الاعتدال والوسطية

الإسلام دين عدل ووسطية، لا إفراط فيه ولا تفريط، قال تعالى: { وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا } [البقرة 143]، والحج من أهم العبادات التي تجسد هذا المبدأ عمليا، قال تعالى: { وَأَذِّنْ فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَى كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِنْ كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ (27) لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ } [الحج 27-28]، قال ابن عاشور في تفسيره: " وتنكير منافع للتعظيم، المراد منه الكثرة وهي المصالح الدينية والدنيوية، لأن في مجمع الحج فوائد جمة للناس: لأفرادهم من الثواب والمغفرة لكل حاج، ولمجتمعهم لأن في الاجتماع صلاحا في الدنيا بالتعارف والتعامل "[52].

وقال الطبري بعد أن ذكر الخلاف في تعيين هذه المنافع: هل هي منافع دنيوية أو أخروية أو هما معًا؟: " وأَوْلَى الأقوال بالصواب قَوْلُ مَن قال: عني بذلك ليشهدوا منافع لهم من العمل الذي يرضي الله والتجارة؛ وذلك أن الله عمَّ لهم منافع جميع ما يشهد له الموسم، ويأتي له مكة أيام الموسم من منافع الدنيا والآخرة، ولم يخصص من ذلك شيئًا من منافعهم بخبر ولا عقل، فذلك على العموم في المنافع التي وصفت "[53].

فهذه الآية قد رسمت خطا متزنا لحياة المؤمن بين مصالح الدين والدنيا، وكما أن الحج موسم ديني عظيم للإكثار من الطاعات والفوز بالدرجات، فهو موسم اقتصادي كذلك لعقد الصفقات وممارسة مختلف التجارات، فيكتمل بذلك الخير والنفع للأمة، فالحرم هو المكان الذي تُجبى إليه ثمرات كل شيء؛ كما نطق به قوله تعالى: { وَقَالُوا إِنْ نَتَّبِعِ الْهُدَى مَعَكَ نُتَخَطَّفْ مِنْ أَرْضِنَا أَوَلَمْ نُمَكِّنْ لَهُمْ حَرَمًا آمِنًا يُجْبَى إِلَيْهِ ثَمَرَاتُ كُلِّ شَيْءٍ رِزْقًا مِنْ لَدُنَّا وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ

---

[52] : ابن عاشور، التحرير والتنوير، 246/17.

[53] : الطبري ابن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، 522/16.

لَا يَعْلَمُونَ } [القصص 57]، إنه المكان الذي تجتمع فيه خيرات الأرض كلها، ويتبادل الحجيج فيه منافع التجارة، ويعقدون الصفقات المربحة.

رابعا– استشعار مبدأ الولاء والبراء:

الحج من أهم المواسم التي تتجسد فيها عقيدة الولاء والبراء، الموالاة لأهل الإسلام والإيمان، والبراءة من أهل الشرك والكفران، فبعد فتح مكة وانتصار الإسلام، وتطهير بيت الله من رجس الأوثان، منع الله تعالى عن بيته كل مشرك نجس فقال: {يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُواْ إِنَّمَا الْمُشْرِكُونَ نَجَسٌ فَلاَ يَقْرَبُواْ الْمَسْجِدَ الْحَرَامَ بَعْدَ عَامِهِمْ هَذَا وَإِنْ خِفْتُمْ عَيْلَةً فَسَوْفَ يُغْنِيكُمُ اللّهُ مِن فَضْلِهِ إِن شَاء إِنَّ اللّهَ عَلِيمٌ حَكِيمٌ} [التوبة 28].

فلا يحضر هذا المؤتمر الإسلامي المشهود إلا أهل التوحيد والإسلام، فلا يلتفت الحاج في حجه يمنة ولا يسرة، ولا يخطو خطوة إلا ويجد أخاه من أهل الإسلام، باختلاف أوطانهم ولغاتهم وأشكالهم، فيعظم في قلبه عزة الإسلام، وتسمو في نفسه مكانته، ويستشعر قوته بإخوانه، وهذا هو لب عقيدة الولاء، ومن هنا تظهر الحكمة في الإذن بالقتال، ووعد الله تعالى بنصر دينه والدفاع عن عباده المؤمنين في سورة الحج، قال تعالى: { إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (38) أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَاتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا وَإِنَّ اللَّهَ عَلَى نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ } [الحج 38].

كما أن إعلان البراءة من الكفار والمشركين على اختلاف أصنافهم ومللهم كانت في موسم الحج قال تعالى: { وَأَذَانٌ مِّنَ اللَّهِ وَرَسُولِهِ إِلَى النَّاسِ يَوْمَ الحَجِّ الأَكْبَرِ أَنَّ اللَّهَ بَرِيءٌ مِّنَ المشْرِكِينَ وَرَسُولُهُ فَإِن تُبْتُمْ فَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَاعْلَمُوا أَنَّكُمْ غَيْرُ مُعْجِزِي اللَّهِ وَبَشِّرِ الَّذِينَ كَفَرُوا بِعَذَابٍ أَلِيمٍ } [التوبة: 3]، وأكد النبي صلى الله عليه وسلم هذه البراءة، فعن أبي هريرة رضي الله عنه قال: " بعثني أبو بكر رضي الله عنه تلك الحجة في المؤذّنين، بعثهم يوم النحر يؤذّنون بمنى: ألاَّ يحج بعد العام مشرك، ولا يطوف بالبيت عريان "[54].

وعليه فالحج درس عظيم للحجاج خاصة والمسلمين عامة، كي يعتزوا بدينهم ويتمسكوا بغرزه، ويعلموا أنهم خير أمة أخرجت للناس، وأن الله تعالى قد منّ عليهم بأعظم نعمة وهي دين الإسلام وكفى بها نعمة، وأن النصر والتمكين لهذا الدين، والذل والصغار على من خالفه، مهما ظهر من ضعف وتقهقر للمسلمين، وتقدم وتطور لأعدائهم، فنصر الله قادم لا محالة، وعلى أمة الإسلام أن تجعل موسم الحج مؤتمرا سنويا لمناقشة قضايا المسلمين المصيرية، ونصرة مستضعفيهم، ومد يد العون لمضطهديهم، ومساعدة محتاجيهم.

---

[54] : أخرجه البخاري في صحيحه، كتاب التفسير، باب سورة براءة، حديث رقم (4378).

6. الخاتمـــــــة

الحمد لله الذي بفضله تتم الصالحات وبعونه وتوفيقه تقضى الحاجات، فقد أتيت على خاتمة هذه الدراسة، والتي سأخصصها لذكر أهم النتائج وبعض التوصيات، فأما عن النتائج فهي:

1- سورة الحج من أعاجيب السور نزلت ليلا ونهارا، سفرا وحضرا، مكيا ومدنيا، سلميا وحربيا، ناسخا ومنسوخا، محكما ومتشابها، كما أنها السورة الوحيدة التي سميت على ركن من أركان الإسلام.

2- المقصد الأساس والغرض الأكبر من سورة الحج هو مقصد عقائدي تعبدي يدور حول توحيد الله وتعظيمه والخضوع لقوته وتحقيق عبوديته وتقواه.

3- جاءت سورة الحج لمعالجة الجانب الباطني والروحي لركن الحج، من خلال تطهير القلوب وتزكية الأنفس، واستشعار المناسك، واستحضار كل الذكريات والمواقف التي تحوم حول تلك البقاع المقدسة.

4- لمعرفة مقاصد سورة الحج العامة أثر كبير على الحاج والمعتمر، يبرز في تصحيح اعتقاده، وإخلاص نيته، وتعظيم ربه واتقاء عذابه، ومداومة ذكره، والتسليم لأمره ومتابعة رسوله.

5- من فوائد تدبر مقاصد سورة الحج الخاصة تحقيق مبدأ المساواة وأخوة الإيمان بين المسلمين، والتعود على الصبر وضيق العيش، والتدرب على الاعتدال والوسطية، واستشعار مبدأ الولاء والبراء.

أما عن التوصيات: فأوصي بما يأتي:

1- ضرورة التركيز على الجانب الروحي والباطني للحج بقدر الاهتمام بالجانب الفقهي والتشريعي.

2- الرجوع إلى القرآن الكريم دراسة وتدبرا واستنباطا لمقاصده، واستثمار ذلك في معالجة كل مشاكل الأمة وقضاياها.

وصلى الله وسلم على محمد وآله وصحبه أجمعين

Conclusion

Praise be to God, by whose grace good deeds are done and with whose help and success needs are fulfilled. I have come to the conclusion of this study, which I will dedicate to mentioning the most important results and some recommendations. As for the results, they are:

1- Surah Al-Hajj is one of the marvels of the Surahs revealed day and night, travel and urban, Mecca and Medina, peaceful and warlike, abrogated and abrogated, clear and allegorical. It is also the only surah named after a pillar of Islam.

2- The main purpose and the greater purpose of Surat Al-Hajj is an ideological and devotional purpose that revolves around God's unification, glorification, submission to His power, and realization of His servitude and piety.

3- Surat Al-Hajj came to address the esoteric and spiritual aspect of the pilgrimage pillar, by purifying the hearts and purifying the souls, sensing the rituals, and evoking all the memories and attitudes that hover around those sacred spots.

4- Knowing the general purposes of Surat Al-Hajj has a great practical impact on the pilgrim and the pilgrim performing Umrah.

5- One of the benefits of contemplating the specific purposes of Surat Al-Hajj is achieving the principle of equality and brotherhood of faith among Muslims, getting used to patience and narrow living, training in moderation and moderation, and sensing the principle of loyalty and disavowal.

As for the recommendations: I recommend the following:

1- The need to focus on the spiritual and esoteric aspect of Hajj as much as the jurisprudential aspect.

2- Referring to the Holy Qur'an, studying, contemplating, and deducing its purposes, and investing that in addressing all the nation's problems and issues.

Blessings and peace upon Muhammad and his family and companions

7. قائمة المصادر والمراجع

1- ابن عاشور محمد الطاهر، التحرير والتنوير، الدار التونسية للنشر، تونس، 1984 م.

2- الأندلسي ابن عطية، المحرر الوجيز في علوم تتعلق بالكتاب العزيز، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1993 م.

3- البخاري محمد بن إسماعيل، صحيح البخاري، ت: مصطفى ديب البغا، دار ابن كثير، بيروت، الطبعة الثالثة، 1407 هـ / 1987 م.

4- البقاعي إبراهيم بن عمر، نظم الدرر في تناسب الآي والسور، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1995 م.

5- البيهقي أبو بكر، شعب الإيمان، ت: عبد العلي عبد الحميد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى، 1423 هـ/ 2003 م.

6- الترمذي محمد بن عيسى، سنن الترمذي، ت: بشار عواد معروف، دار الغرب الإسلامي، 1998م.

7- الجوزية ابن القيم، الداء والدواء، مجمع الفقه الإسلامي، جدة، الطبعة الأولى، 1429 هـ.

8- الداني أبو عمرو، البيان في عد آي القرآن، ت: غانم قدوري الحمد، مركز المخطوطات والتراث، الكويت، الطبعة الأولى، 1414هـ/ 1994م.

9- الزركلي خير الدين، الأعلام، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الخامسة عشر، 2002 م.

10- السجستاني أبو داود، سنن أبي داود، ت: شعَيب الأرنؤوط ومحَمَّد كامِل قره بللي، دار الرسالة العالمية، بيروت، الطبعة الأولى، 1430 هـ / 2009 م.

11- السعدي عبد الرحمن بن ناصر، تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، ت: عبد الرحمن اللويحق، مؤسسة الرسالة، الطبعة الأولى، 1420هـ/ 2000 م.

12- الشدي عادل بن علي، مقاصد الحج في القرآن الكريم، مجلة جامعة أم القرى لعلوم الشريعة والدراسات الإسلامية، العدد 44، 1429 هـ.

14- الشيباني أحمد بن محمد، مسند الإمام أحمد، ت: شعيب الأرنؤوط وآخرون، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الأولى، 1421 هـ/2001 م.

15- الطبري ابن جرير، جامع البيان في تأويل آي القرآن، دار هجر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان، الطبعة الأولى، 422 هـ/ 2001 م.

16- العسقلاني ابن حجر، فتح الباري شرح صحيح البخاري، دار المعرفة، بيروت، 1379 هـ.

17- القرطبي محمد بن أحمد، الجامع لأحكام القرآن، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة السابعة، 2001 م.

18- القزويني ابن ماجه، سنن ابن ماجه، ت: شعيب الأرنؤوط، دار الرسالة العالمية، الطبعة الأولى، 2009 م.

19- القنوجي صديق بن حسن، فتح البيان في مقاصد القرآن، المكتبة العصرية، بيروت، 1996 م.

20- النيسابوري مسلم بن الحجاج، صحيح مسلم، ت: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء التراث العربي، بيروت، د.ط.

21- شحاته عبد الله محمود، أهداف كل سورة ومقاصدها، المؤسسة المصرية العامة للكتاب، 1976 م.

22- قطب سيد، في ظلال القرآن، دار الشروق، بيروت- القاهرة، الطبعة السابعة عشر، 1412 هـ.

23- مسلم مصطفى وآخرون، التفسير الموضوعي لسور القرآن، جامعة الشارقة، الطبعة الأولى، 2010 م.

24- وصفي عاشور، التفسير المقاصدي لسور القرآن، جامعة القاهرة، مصر، 2013م.